نشأة غاندى

من العظماء من يستطيع المؤرخ أن يهمل تاريخ أسرته ولا خسارة عليه ولا على العظيم الذى يكتب تاريخه . لأن فهم ترجمته لا يردّنا إلى تراجم آبائه وأجداده ، ولا يزداد وضوحاً بالرجوع إليها .

ومنهم من ترتبط ترجمته وترجمة أسرته كما يرتبط الفصلان فى قصة واحدة ، فلا تفصله سيرته عن سيرهم إلا عرض لها بعض النقص ، أو بعض الحاجة إلى التساؤل والتفسير .

ذلك هو العظيم الذى تعرف أخباره وأخبار قومه فلا تزال تقول : نعم هذا هو جده الصالح ، هذا هو الأب الذى ينجله ، هذه هى الأم التى تغذوه بلبانها وتنشئه فى حجرها وتلقنه حروفه الأولى .

وغاندى من هؤلاء العظماء ، بل من أندر الأمثلة على الصلة بين حياة الأبناء وحياة الآباء .

كانت أسرته أصلح أسرة يخرج منها قديس مثله ، وكانت أمه على الخصوص هى الأم التى لا نستغرب خلقاً من أخلاقه ، ولا عملا من أعماله ، إذا عرفنا سيرتها وعرفنا

ما تلقاه من كيانها وما تلقاه من قلبها ولسانها .

كان جده « أوتاغاندى » رئيساً للوزراء فى « پور بندر » أو البلدة البيضاء ، وكان مع اشتغاله بالسياسة رجلا لاينسى عهده ولا ينقض وده . ألجأته صراحته إلى ترك وظيفته والهجرة من بلده واللياذ بأمير إقليم « جوتاجاد » . فلما لقى الأمير سلم عليه بيده اليسرى إيذاناً من اللحظة الأولى ببقائه على عهد أميره الأول ، وقال : إن يدى اليمنى هى اليد التى عاهدت بها أمير « پوربندر » ، فلا أعاهد بها مرتين !

وكان أبوه كرمشاند غاندى — أو كاباغاندى ، كما عرف بين أهله — هو الولد الخامس لجده ، والولد الأول من زوجته الثانية . وقد كان وزيراً فى « راجكوت » ، ثم وزيراً فى « فانكانار » . ومات وهو يتقاضى معاشاً من حكومة راجكوت . . .

وفقد كاباغاندى زوجتين قبل أن يتزوج بأم غاندى « پوتلباى » ثالثة زوجاته ، ورزق منها بنتاً وثلاثة أبناء . أصغرهم هو « المهاتما » . . . الذى سمى موهانداس .

وليس « كاباغاندى » قديساً ولا « مهاتما » كولده الصغير ، أو ولده الروح العظيم . ولكن ليس فى خلائقه مايمنعه أن يكون أباً لقديس أو مهاتما ، لأنه كان رجلا صادقاً أميناً

مستقيم الطوية . لا يؤخذ عليه ، إلا أنه كان غضوبا صراحته إذا كان فى الصراحة وفاء بواجب : تطاول به كبار الساسة على أميره فى غيبته فحفظ الوزير الأمين غ أميره ورد على السياسى الكبير سوء المقالة بمثلها ، فجد ليعتذر ، فلم يعتذر ، فأطلقوه .

وقد يؤخذ عليه أنه بنى بزوجته الرابعة وهو فو الأربعين ، ولكنه لم ينقض بذلك عرفاً ولا خرج على عقيد وإنما هى النزعة الجسدية التى ورثها منه ابنه ، وغالبها فغلا حين نذر نفسه للقداسة والجهاد .

أما أمه « بوتلباى » فلك أن تقول إنها قديسة غير ذا رسالة . كانت تكتفى فى اليوم بوجبة واحدة من الطعا وكانت تصوم فى معظم الأيام ، وكانت على غيرتها الدي متصرفة فى عقيدتها . فقد قيل إنها نشأت من الطائفة الفشنا الهندوكية ، فتحولت إلى العقيدة « الجينية » لأنها وجد أقرب إلى النسك وأقرب إلى الكمال .

منها تلقى الوليد الصغير إيمانه بالصيام ، فكان عادة له حياته الخاصة ، وكان عادة له فى حياته العامة ، بل كان أ كر من عادة فى هذه الحياة التى حفلت بأحداث السياسة . . كا حصناً يلوذ به لينتصر فيه أو يموت . فنذر الصيام خمس

عشرة مرة ، آخرها صيامه الذى نذره قبيل وفاته لكف عدوان الهندوكيين عن المسلمين ، وطال خمسة أيام . وقد طال صيامه خمسة وعشرين يوماً فى إحدى هذه المرات .

ومن أمه ، أخذ ما كان أفعل فى تاريخه وتاريخ الهند كلها من الصيام ، وهو الإيمان بعقيدة الجينية فى « الاهمسا » . أو الكف عن العدوان .

فلا تنفصل عن « الاهمسا » حركة من حركات غاندى ، ولا دعوة من دعواته ، ولا علة من علل نجاحه ، ولا خليقة من الخلائق التى راض عليها عقله وطباعه . ولا تُفهم رسالة لغاندى فى السياسة أو السلوك أو آداب الضمير ، بمعزل عن هذه « الاهمسا » التى كان أصدق رسول لها منذ ارتفعت بها دعوة فى البلاد الهندية ، لأنه رضعها من ثدى أمه ، قبل أن يتعلمها من مرشد إلى أدب ، أو مبشر بدين .

* * *

ولد موهانداس فى اليوم الثانى من شهر أكتوبر سنة ١٨٦٩ ، فى بلدة « پوربندر » كما تقدم . وهى بلدة من إقليم يقع بين السند وبومباى يسمى الكوجرات ، وينفرد بلغته وبعض عادات أهله بين الأقاليم الهندية .

وقد روى لنا غاندى فى سيرة حيـــاته . أو فى

اعترافاته ، شيئاً من المحن التى عرضت له فى صباه .

قال : إنه كان جباناً ، وكان يستمع إلى الأحاديث عن اللصوص والأشباح والثعابين فيفزع منها ولا يجرؤ على الخروج من بيته فى الظلام ، ولا ينام فى حجرته إلا على نور . وظل كذلك حتى تزوج — وقد تزوج فى الثالثة عشرة من عمره على عادة أهل الهند جميعاً من الزواج الباكر — فكان يخجله أن يرى زوجته الصغيرة أقدر منه على مواجهة الظلام .

ونحن ننصف الرجل من تواضعه إنصافاً للحقيقة فيما نراه . فقد يُسمَّى ما وصفه جبناً ، إذا كان الرجل قد عُرف فى جميع أيام حياته بحادث واحد يشف عن خوف من المخاطر المادية أو ماهو أرهب منها وأهول على الضمير : وهو المخاطر النفسية . وليس من المعقول أن يؤدى الإحساس بالجبن إلى انقلاب فى طبيعة الإنسان يجعله من أشجع الناس وأقدرهم على مواجهة الخطوب التى يتقيها أشجع الشجعان . وإنما نسمى « الجبن » هذا بوصف آخر هو الوصف الذى اشتهر به الرجل طول حياته : وهو ملكة التصديق والإيمان . فلا فرق عند صبى مطبوع على ملكة التصديق والإيمان بين شىء يصدقه وشىء يمسه ويراه . وقد كان حديث المردة والشطار والثعابين حديثاً مشاعاً بين أطفال الهند يسمعونه كلما أصغوا

إلى أقاصيص العجائز فى بيوتهم ، فكان يؤمن بوجودهم حيث توهمهم كأنه يلمسهم ويراهم . ونحن لا نصف بالجبن إنساناً يتقى مكامن اللصوص وجحور الحيات فى الظلام . ولكننا نصفه بالحيطة الواجبة على الرجل العاقل ، ونلومه إذا استطاع أن يقهر المخاوف فأحجم عن قهرها ، ولكننا لا نطلب منه أن يتصدى لقهرها فى ليله ونهاره بغير داع يدعوه إلى منازلتها ، وهو قادر على اجتنابها .

إلا أن اعتقاد غاندى الجبن فى نفسه خطأ له شأن يذكر فى تاريخ نشأته ، لأنه دفع به إلى تجارب نفسية كان لها أثر بليغ فى تكوين خلقه واعتقاده .

فى صباه كان صبيان الهند جميعاً يتهمون أنفسهم بالجبن ويحسون بالنقص كلما عقدوا المقارنة بينهم وبين شبان الإنجليز ، وكانت تسرى بينهم أبيات من الشعر نظموها بالإنجليزية نترجمها فى هذه الأبيات :

أنظر إلى ابن انجلترا منتصراً مظفّرا
يسطو على الهندى والـــهندى يشكو القصرا
لأكله اللحوم طا ل واستطال وازدرى

ووقر فى أنفسهم أنهم يكسبون الشجاعة وقوة الخلق إذا نبذوا معيشتهم ، وأكلوا وشربوا ودخنوا وقصفوا ولعبوا كما يفعل الشبان الإنجليز .

ووسوس بهذا إلى غاندى زميل من زملاء المدرسة ، فسرق غاندى دريهمات من خادمه ليصبح بطلا تعتز به الهند فى وجه الدولة البريطانية ... وأكل اللحم المحرم ، وهمّ باستباحة غيره من المحرمات . وجرّأته السرقة الأولى على سرقة أخرى ، فعاد إلى السرقة فى المرة الثانيـة لأنه رأى دائناً يلح على قريبه فى طلب دين عليه ، فاختلس من يد ذلك القريب قطعة ذهبية ليؤدى عنه دينه الذى يمطل به غريمه .

وعز على غاندى وصاحبـه أن يختلسا القوة هكذا ، وألا يجسر أحدهما على مكاشفة أهله بمـا يفعل . فساورهما الأسف وحز فى نفسيهما الـكبت والروغان ، وفـكرا فى « الانتحار » واشتريا السم فعلا وأكلا منه ، ولـكن دون المقدار الذى يميت .

وخيّـل إلى غاندى فترة من الزمن أنه ينـكر كلّ عقيدة ويلحد فى الله . إلا أنها كلها محنة عارضة لامفر منها لقديس صغير . فإن القديس الصغير لا يولد وهو قديس كبير ، فغشيته الصدمة الأولى كما لابد أن تغشاه ، وكانت غاشية غريبة عن طبيعته ومزاجه وتربيته ، فلم يلبث طويلا حتى ثاب إلى إيمانه وتقاليد قومه . فاجتنب اللحم وعافه حتى بات يتقزز من رؤيته ويفزع من الحلم بمنظره ، وكان بره بوالديه ـــ

ولاسيما والدته، من أكبر أسباب توبته ورجوعه إلى سالف اعتقاده، لأنه أشفق أن يعلما باستباحته أكل اللحم، وهي فظاعة عندهم كتظاعة أكل الخنزير عند المسلم، وأنف أن يكذب عليهما ويلقاهما بالرياء والخداع، ولم يكن من طبعه تهماً ولا مسترسلا مع الإباحة والإنكار. فعاد بعد هذه الفاشية إلى إيمان أنت من إيمان الطفولة وأقوى.

وتزوج غاندى، كما تقدم، على عادة قومه وهو فى الصبا الباكر. فخطبت له الصبية «كسترباى» من عشيرته وهو فى الثامنة، وبنى بها وهو فى الثالثة عشرة، ولم يبلغ العشرين حتى صار أبا لأربعة أطفال. أكبرهم «هيرالال» الذى مات بعد مقتله ببضعة أشهر، وكانت وراثته «الغاندية» تلقاً دينياً خطيراً منذ صباه. فلم تعجبه الجيفية ولا البرهمية، وانتحل الإسلام والمسيحية، واعتزل أهله منذ فاوق نحلة الأسرة إلى أن مات (يونيو ١٩٤٨).

ولا يذكر غاندى بالرضى زواجه فى هذه السن الباكرة. فكتب فى ترجمة حياته أن أهله أصروا على تزويجه، وتزويج أخيه، وأحد أبناء أعمامه فى يوم واحد، ولم ينظروا إلى مصالحنا ولا عنوا بسؤالنا، كأنما كل ما فى الأمر أنهم راضون وأنهم قادرون على تكاليف الزفاف، وليس الزواج

عند الهندوكيين بالأمر الهين . فقد يجر الخراب على أسرتين ، وفيه ما فيه من تضييع المال والوقت وقضاء أشهر فى إعداد الملابس والحلى وأدوات الزينة وإقامة المآدب ، ومباراة كل من الأسرتين للأخرى فى النفقة ، لتبذها فى السرف ومظاهر الوجاهة » .

وأصاب غاندى فى امتعاضه من هذه العادة التى لاخير فيها ، لأن نفقات هذا الزفاف الضخم قد نالت من ثروة أبيه وهى ليست بالثروة الطائلة . فقد كان الرجل أعف من أن يستخدم منصبه لابتزاز المال . ولعل امتعاض غاندى من تزويجه فى هذه السن على غير موافقة منه قد ظل عالقاً بنفسه إلى أن تولى زعامة قومه ، فأنحى على هذه العادة أشد إنحاء ، واستهدف من جراء ذلك لغضب الكثيرين من المحافظين .

ويمكن أن يقال إن الصبى القديس كان يُقبل على الشىء أو ينفر منه بمقدار نصيبه من اختياره . فنفر فى صباه من المسيحية لأن المبشرين بها كانوا يفرضون بشارتها فرضاً على الصغار والكبار ، ونفر من الألعاب الرياضية لأنها كانت « مادة إجبارية » فى المدرسة ، وكان إصغاؤه إلى أحاديث المسلمين عن دينهم أيسر وأسمح لأنهم كانوا لايقحمونها على مستمعيها .

أما تعليم الصبي فقد اتبع فيه أهله مايتبع فى تعليم الأطفال من أبناء أمثالهم . وكان أبوه فى راجكوت حين بلغ موهانداس الصغير سن السابعة أو سن الدراسة الابتدائية ، فألحقه بمدرستها ، وانتظم فى المدرسة الثانوية وهو فى الثانية عشرة ، وقال عن نفسه أنه كان فى طفولته فجّ الذاكرة فلم يحفظ جدول الضرب إلا بشق الأنفس ، ولم يكن من التلاميذ اللامعين ، ولكنه كان يقبل على دروسه ولا يتوانى فى استذكارها .

ولم يتعلم فى المدرسة كثيراً من الدروس الدينية ، ولكنه كان يتلقاها فى البيت والمعبد ويعى منها كل ما يُلقى إليه .

ومات أبوه وهو فى السابعة عشرة من عمره ، فكفله أخوه الأكبر ، وكان أيضاً أخاً جديراً بقديس ... فإنه توسم النجابة فى أخيه الصغير فنسى أثرته ورشح هذا الأخ الصغير للقيام على رئاسة الأسرة ، والترقى إلى مركز فى الوزارات الإقليمية كمركز أبيه ، ولا يهيؤه لهذا المركز فى عصره إلا تعليم كتعليم الجامعات فى الهند والأقطار الأجنبية . فأشار على كبراء الأسرة بإعداد موهانداس لهذا التعليم .

وكان أمامه جامعتان : إحداهما جامعة بانجار والأخرى جامعة بومباى ، وهى أكبر نفقةً مما يطيق . فاختار كلية

ساملداس فى الجامعة الأولى . وقال إنه غرق فى علومها فنقل إلى بيته بعد نهاية السنة الأولى ، فنصحه برهمى صديق للأسرة بالسفر إلى البلاد الانجليزية لدرس القانون ، ومال هو إلى الطب . . . فذكره أخوه أن أباهما كان يمقت تشريح الجثث ، وأن وظيفة الطبيب لا ترشحه لولاية الوزارة ، فجنح إلى الدراسة القانونية إكراماً لذكرى أبيه .

وهنا قامت فى وجهه العقبة الكبرى ، لأن إيغال فتى مثله فيما وراء البحار مستنكر فى شريعة الجينيين ، ولم يكن فى الهند كلها سيدة أشد تحرجاً من مخالفة عقيدتها من السيدة « بوتلباى » والدة غاندى . فضلا عن تحرج أهله وسائر أقربائه .

إلا أن غاندى الذى شب من صباه وديعاً مطواعاً قد شب كذلك قوىّ العزيمة لا ينثنى عن رأى عقد النية عليه . فلم تنفع حيلةٌ من حيل آله فى إقناعه . واستطاع كاهن الأسرة أن يجد للأمر مخرجاً يرضى الأم ويرضى فتاها . فقال لهم : إن النذر باجتناب المحرمات فى بلاد الغربة كافٍ إذا وثقت الأسرة من رعاية الفتى لنذره . وكانت الأم تعرف وليدها وتطمئن إلى صدقه فى وعده . فأقسم بين أيديهم لا يقارب امرأة ولا يذوق خمراً ولا يأكل لحماً أو طعاماً محرماً ... ومع هذا لم يسلم الفتى من غضب المتشددين من كهان عشيرته ، فاستدعاه رئيسهم

فى بومباى وهو يهم بركوب الباخرة إلى البلاد الانجليزية ، ونبهه إلى الخطر على عقيدته من معاشرة الأوربيين فى بيوتهم لأنهم يشربون الخمر ، ويأكلون اللحوم ، ولا يتورعون عن مقاربة النساء . فلم يحفل غاندى بتنبيهه ، وأصر على السفر فى حينه ، فأعلن الكاهن عقوقه وحظر على أبناء العشيرة أن يذهبوا لتوديعه .

ويمتحن مهاتما المستقبل فى هذه الرحلة بالفتنة الكبرى . فالنزعة المادية طاغية ، والإباحة الخلقية فاشية ، وفلسفة العصر فى أواخر القرن التاسع عشر — بين الجيل الجديد خاصة — أن اللهو حق له بل فريضة عليه . وقد أوشك غاندى أن يطلب هذا الحق ويدين بهذه الفريضة ، فتدرّب على الرقص وتعلم العزف على بعض الآلات الموسيقية ، وصحب رفاقه إلى السهرات وراض نفسه على أدب المغازلة . ثم أحس أنه يتكلف ولا يخف بطبعه إلى استجابة هذه الفتنة . وشاءت المصادفة أن تقترن فلسفة العصر بفلسفة أخرى فى البيئات التى تعنيه ، وتستحوذ على هواه . إذ كانت نهاية القرن التاسع عشر أيضاً فترة الاستشراق ، والتوفر على دراسة أطوار الشرق القديم والشرق الحديث : فكثر بين علماء الغرب من يدرس اللغة الهندية ، ومأثورات البرهمية والبوذية ، إما استجابةً لدواعى

الاستعمار، أو استجابة لنوازع الروح وامتعاضاً من غواية المادة ولجاجة الإلحاد التى أفسدت على بعض العقول معنى الحياة . وكانت هذه الشواغل القليلة أقرب إلى سليقة غاندى وأقمن منه بالتلبية والإصغاء ، فاتصل بالأندية الصوفية ، واطلع فى اللغة الانجليزية على آداب قومه التى فاته أن يطلع عليها فى اللغة السنسكريتية ، وعاد من طريق أوربة الحديثة إلى تاريخ وطنه القديم .

ونال إجازة الحقوق بعد ثلاث سنوات ، فرجع إلى وطنه وهو أطيب ما يكون قلباً بلقاء أمه ووفاء نذره ، ولكنه سمع — أول ما سمع — بنعى تلك الأم التى ماتت فى غيبته ، وكتموا نبأ موتها عنه اشفاقاً عليه من صدمته وسوء وقعه فى طمأنينة نفسه وانتظام دراسته ، فاستفاد يقينه من هذه الصدمة المفاجئة فائدة لم يطالبها ولم تقع فى حسابه ، لأن وفاءه لذكراها قد ضاعف حفاظه على نذرها ، واجتمعت الأمومتان : أمومة الجسد ، وأمومة الوطن ، فى أمومة واحدة ، وهى أمومة العقيدة الروحية .

وزاول غاندى صناعة المحاماة زهاء سنتين فى وطنه ، فكانت أول تجربة له فيها إخفاقاً تاماً لأنه حصر عن الكلام ، ولم ينجح فيها بعد تكرار التجربة ولا رضى عن عمله فى هذه

الصناعة . لأنه أخذ نفسه بالصدق فى قبول دعاواه ، وأنف من اقتناص أصحاب القضايا بالحيلة ومعونة السماسرة . فما هو إلا أن دُعى إلى أفريقية الجنوبية حتى بادر إلى قبول الدعوة ووصل إلى بريتوريا فى سنة ١٨٩٣ وهو لا يعلم بما يضمره له الغيب فى هذه الرحلة المفاجئة . فقد كانت مفرق الطريق فى حياته وفى حياة بلاده على الإجمال .

سافر غاندى إلى أفريقية الجنوبية بدعوة من بعض الشركات الإسلامية التى كانت تتجر على شواطىء المحيط الهندى من أقصاه إلى أقصاه ، ولم يدع للمحاماة ، بل لمساعدة المحامين الكبار من الانجليز . لأن المحامى الانجليزى هو الوكيل القضائى الذى يسمع له صوت فى محاكم أفريقية الجنوبية .

ولكنه ذهب فى الواقع إلى تلك البلاد لأمر آخر مطوى عنه وعن موكليه فى عالم الغيب المجهول .

ذهب ليتلقى رسالته فى حياته .

فتلقى رسالته ، وعرف قضيته ، ووضع قدمه على فاتحة الطريق التى انتهت به إلى زعامة الهند كلها ، بعد جهاد طويل دام نحو عشرين سنة ، ووضع هناك (سنة ١٩٠٨) دستور الهند فى جهادها السياسى والأخلاقى فكان هو الدستور الذى قاد به الهند إلى استقلالها .

فى أفريقية الجنوبية ضُرب غاندى وأُهين لأنه اجترأ على النزول فى الفنادق الأوربية والركوب فى السكك الحديدية مع الأوربيين ، وكاد أن يحرق حياً فى النزل الذى أوى إليه بعد العودة من زيارة قضاها فى بلاده ، لأن « البيض » قد حسبوا أنه مهد السبيل فى هذه الزيارة لإغراق أفريقية الجنوبية بالعمال الملونين .

وهناك عرف القوانين التى كانت تفرض الحيف فرضاً على الآسيويين والأفريقيين من الشعوب التى يسمونها بالشعوب الملوّنة ، ولا سيما طوائف الزراع والصناع .

وهناك ألغى أعماله كلها ليعيش عيشة الفاقة والضنك مع أولئك البائسين ، ويشاطرهم الظلم الذى يخضعون له ويريد أن ينقذهم منه . فأنشأ لهم مزرعة يعملون فيها كما يعمل ويعيشون فيها عيشة الكفاف ، ليحطموا قوانين الحكومة الظالمة بالصبر والمقاومة السلبية ، وسماها مزرعة تولستوى .

ونزل الفتى النظرى الروحانى فى معركته السياسية الأولى إلى ميدان كله عمل ومادة . لأنه عالم السلاح والمال . ولكنه — عند النظر إلى الوسائل والنتائج — قد كان فى ميدانه هذا عملياً أنجح من العمليين ، وقد بُلى منه العمليون بخصم جديد لم يعهدوا مثله قط فيما عهدوه .

عادل في أفريقيا الجنوبية

لقد عهدوا من معارضيهم حملات الصحافة ، ولم يهمل غاندى هذه الحملات لأنه تولى تحرير صحيفة سماها (الرأى الهندى) تصدر بالانجليزية وثلاث لغات هندية ، ولكنها لم تكن قصاراه من الكفاح .

ولقد عهدوا من معارضيهم حملات المنابر ، ولم يهمل غاندى هذه الحملات ، لأنه كان يخطب ويقنع ، ويخاطب المتعلم والجاهل بما يفهمان . ولكنها كذلك لم تكن قصاراه من الكفاح .

إنما السلاح الجديد الذى جاءهم به هو سلاح لم يخافوه قط ولم يحسبوا يوما أنه يخيف لو أنهم عرفوه . وذاك هو سلاح المقاومة فى غير عنف ، أو سلاح المقاومة السلبية كما عرفه ولاة الأمر فى حكومات الجنوب .

كان بعض الهنود ينقادون لغاندى فى حملات المقاومة السلبية ، لأنهم يؤمنون مثله باجتناب العنف والتورع من إزهاق كل حياة .

لكن عمال الجنوب فيهم صينيون وأندونسيون ، وفيهم هنود غير مؤمنين بالنحلة التى يؤمن بها الزعيم ، وفيهم زنوج ووثنيون لا يعرفون من الأديان غير أديان الهمجية الأولى .

وكانوا مع ذلك يطيعونه جميعاً ويعملون بما أرادهم عليه ، لأنهم مطمئنون إلى إخلاصه الذى لا تشوبه شائبة ولا ترتقى إليه مظنة .

هذا الإخلاص النزيه هو العنصر الذى جهله ولاة الأمر واستخفوا بالمقاومة السلبية لجهلهم بفعله فى هذه الحركة ، وفى كل حركة سياسية .

فلما التقاهم به الفتى القديس وجدوا منه مالم يجدوه من قبل فى خصومات الساسة ، ومشاغبات الدعاة .

ترك غاندى كل عمل يربح منه مال ، ووقف ماعنده من المال على معونة المعوزين من المظلومين ، وسكن من حيث كانوا يسكنون ، وأكل مما كانوا يأكلون ، ونزل بالسجن مرات حيث ينزلون ، وهجر الحضارة وزينتها فى الملبس والشارة ، وعرض نفسه لكل مهانة يتعرض لها أضعف الضعفاء وأفقر الفقراء .

فأغمضوا العيون ، وفتحوا البصائر ، واتبعوه .

وهكذا يصنع الأتباع مع كل متبوع لو وجدوه ، ولكنهم لا يجدونه واحداً فرداً بين عشرات ومئات .

وأوصاهم إذا كفوا عن أعمالهم أن يكفوا عن إكراه من يعمل على ترك عمله ، وأن يكفوا عن مقاومة الجند الذين

يسوقونهم سوقاً إلى المصانع والمزارع . لأن الجند لن يحركوا أيدى العمال بالفؤوس والآلات إذا شاءوا أن ينبذوها ولا يحركوها . أما إذا ضربهم الجند أو جرحوهم أو قتلوهم فليصبروا وليصبروا ، وليطيلوا الصبر بغير سأم . . . إن المعتدى خليق أن يسأم عدوانه قبل أن يسأموا الصبر على ذلك العدوان . وقد جعلهم يتحدّون أوامر الحظر فى الأماكن الممنوعة فذهبوا إليها بالألوف وحيروا الحكومات والمحاكم . لأنهم لا ينالون السجن ولا تتسع السجون كلها لهذا العدد الكثير من السجناء .

وكان يجمع من المال ما وسعه أن يجمع تموين العمال المضربين ، ويمضى فى تنظيم المزارع النموذجية ليستخرج لهم منها بعض القوت الكفاف ، وهو أكثرهم فى العمل وأقلهم فى نصيبه من الغذاء . وليست وسائله هذه بالوسائل التى تنهى فى انتظام معيشة يعتمد عليها الألوف من العمال المضربين إلى أجل طويل . ولكنها كافية لتعجيز المصانع والشركات عن الانتظام . أو تعجيزها عن مقاومة الاضراب . وذلك هو المقصود .

وطال صبر الفتى القديس عشرين سنة ، ولم يطل صبر المصانع والشركات ، ولا صبر الجند وولاة الأمور . فانتصر

وانكسروا ، وأفلحت هذه المقاومة العجيبة فى تحطيم سلاح القوة وتحطيم سلاح القانون . واضطرت حكومات الجنوب إلى نسخ كثير من القوانين التى تحجر على حرية العمال الملونين فى الإقامة ، أو تقتر عليهم فى الأجور ، أو تسومهم الطاعة لما لايطاق من الغبن والاجحاف .

وكأنما كان غاندى يحس فى أيام أفريقية الجنوبية أنه قد نوى الصمود على جهادٍ لا تجدى فيه أنصاف القوى . فلا غنى له عن عدته الروحية الكاملة . أو لا عدة له على الاطلاق .

ففى أفريقية الجنوبية — وهو يناهز السادسة والثلاثين — نذر النسك والتبتل ، أو نذر مايسميه الهنود « بالبرهماشاريا » أى الإعراض عن الجسد والسلوك إلى الله ، واتفق وزوجه على هذا النذر . فأصبح يدعوها بعد ذلك « با » أو « يا أماه » .

وللروح — إن صح التعبير — عضلاتها كما للجسم عضلاته . وللصراع فى إبرام تلك العضلات أثرٌ كأثره فى إبرام هذه العضلات . فلما عاد غاندى إلى الهند بعد صراعه الطويل فى أفريقية الجنوبية ، عاد بروح قد عرف كيف يلوى الحديد .

عاد إلى الهند بعد نيف وعشرين سنة (١٩١٥) فإذا بسمعته تسبقه إلى كل بقعة من بقاعها : سمعة القديس بل سمعة

المخلص الموعود أو « الأڤاتارا » Avatara الذى تنتظره الهند أبداً فى أزمة الضيق والأمل .

وكان أمل الهند فى الخلاص قد تجدد فى أوائل القرن العشرين . لأن أبناءها الذين خيل إليهم زمناً أن الاستعباد ضربة لازب عليهم وعلى أمثالهم من الآسيويين ، قد أفاقوا يوماً فإذا بدولة أسيوية لاتبلغ عدتها خمس عدتهم قد سخرت الجيوش والأساطيل على أحدث نظام ، فقهرت بها دولة من أكبر الدول شهرة بالقوة والبأس بين الهنود والآسيويين على التعميم . كانت غلبة اليابان على روسيا مبعث رجاء جديد فى جميع الأقطار الآسيوية التى منيت ببلاء الاستعمار . وجاءت الحرب العالمية الأولى بعد ذلك بأقل من عشر سنوات ، فكشفت لأبناء الهند عن حاجة الدولة الأوربية الأولى — الدولة التى تسيطر عليهم — إلى معونة منهم لمقاومة خصومها أو لإنقاذ كيانها .

فعلموا أن رضاهم شىء يؤبه له . أو شىء له ثمن يؤديه القوى المسيطر عليهم ، وهو راض أو كاره .

وفى هذه الآونة عاد غاندى إلى بلاده . فلا جرم يحسبونه قد هبط عليهم من السماء فى ساعة الضيق وساعة الرجاء .

ولم ينغمس غاندى بادىء الأمر فى لجة السياسة الهندية التى كانت تضطرب بالخصومات الحزبية والطائفية فى تلك

الآونة . لعله أخذ فى ذلك بوصية الزعيم جوكيل Gokhale الذى نصح له بمراقبة الحالة سنة كاملة ريثما يستجمع فكره على رأى يستخلصه من تجاربه ومشاهداته . أو لعله آثر إصلاح الأخلاق وتقويم المجتمع ومساعدة العمال ، طريقته التى جرى عليها فى أفريقية الجنوبية . ساف العمال والزراع بالحسنى أو بالمقاومة السلبية ، فى الريف ويتنقل على قدميه من قرية إلى قرية ن الطبقة الفقيرة فى القرى بما استطاع . وبدأ نلات القصيرة فى مقاطعة الآلة الحديثة كلما طعها ، فلم يركب السيارة ، ولا القطار ، إلا حيث ألزم للرحلة من المسير على الأقدام .

ولم يلبث أن طارت شهرته بالقداسة ، بل بالكرامة والخارقة المعجزة . فأخذ الناس من ثم يروون عنه الخوارق التى كان هو أول المكذبين لها ، ومن تلك الآونة تعوّد القديس أن يرى فى طريقه أمهات يلمسنه بأطفالهن الصغار طلباً للبركة والهداية ، وعجائزَ ضريرات يعز عليهن أن يعبر طريقهن دون أن يعرج عليهن ، فيترصدن فى مجاز السيارة ليلمسنها ولو على خطر الموت ، إن فاتهن أن يسعدن بمصافحة القديس العابر فى الطريق . وتعاظمت هذه الشهرة فى الاستفاضة

والرسوخ، حتى جاء يوم من الأيام، بعد فترة من الزمن، آمن فيه عامة أهل الهند بأن الزلزال الذى أصاب « بيهار » إنما كان عقوبة إلهية أرسلها الله على القوم لأنهم لم يستمعوا إلى عظات غاندى فى معاملة المنبوذين.

ولم يكن هذا إيمان العامة وحدهم، بل كان من راجات الهند وخاصتها من يرفع صورة غاندى فى قصره تيمناً بقداسته، وإن خرج بذلك على مقتضى التقية فى مسلك الأمراء والعظماء.

كانت هذه الشهرة المقدسة تتجمع حول غاندى يوم جذبته السياسة إليها جذباً على غير اختياره.

وكان أهل الهند يومئذ فى سياستهم الوطنية على مذاهب شتى: فريق يجنح إلى الثورة الدموية، وفريق يجنح إلى التعاون مع الإنجليز تمهيداً لبلوغ المزيد من الحقوق الدستورية، أو حقوق الحكومة الذاتية، وفريق يجنح إلى عدم التعاون استعجالاً لبلوغ هذه الغاية.

وليس فى هذه الأحزاب كلها حزب يحجم عن عمل من أعمال العنف، أو أعمال الغيلة والفتك، إذا أحوجته الضرورة إليه.

وكان على زعامتهم جميعاً فى أوائل القرن العشرين رجل

من أعظم نوابغ الهند فى الزمن الحديث ، وهو « لوكمانيا بال جانجدبار طيلاق » .

ولقد كان طيلاق عالماً واسع المعرفة بالعلوم الرياضية والثقافة الهندية والغربية ، قويم الخلق ، عالى النفس ، قوى الشكيمة ، صعب المراس ، يقول فيه غاندى : إنه لو ظهر فى الزمن القديم لكان من مؤسسى الدول والعروش .

وأكبر الظن أنه لو عاش طيلاق ، وطال به العمر ، لوقعت وة بينه وبين غاندى فى برنامج السياسة الوطنية ، لأنهما مرجان متباينان . ولكنه قضى زمناً فى السجن ثم قضى نحبه سنة ١٩٢٠ ، قبل أن تنعقد الزعامة الإجماعية لغاندى . لا مدى الحياة على الوفاق .

* * *

وكأنما كانت الهند تروز مكان الزعامة منها حتى وجدت زعامتها التى تلائمها ، بعد هذا التمهيد من تطور غاندى وتطور الحياة الشعبية فى بلاده . فلما تولى غاندى زعامتها تولاها زعامة هندية وروحانية توائم الهند كل الموائمة ، وتصلح لها حيث لا تصلح الزعامات على منهاج الشعوب الأوربية .

ويبدو لنا أن صفات غاندى كلها قد رشحته لهذه الزعامة الروحانية ، حتى عيوبه الظاهرة . فإن القماءة والضآلة

والانكسار نقص فى الزعيم ، ولكنها فى الداعية الروحانى كمال أو توفيق حسن بين دعوته ومرآه . وقد اقترنت صفاته جميعاً بالإخلاص الذى يعلو على الشبهات ، فكانت شهادة له عند الخصوم كما كانت شهادة له عند الأصدقاء .

قلنا حين كتبنا عنه قبل نيف وعشرين سنة[1] : «لم يظهر بعد طيلاق الزعيم الهندى الذى مات فى الأعوام الأخيرة زعيم كان أجل خطراً وأبعد صيتاً ، وأكثر أتباعاً من غاندى. هذا الذى لقبه قومه بالنبى أو القديس . وقد اعتاد غاندى أن يقول عن سلفه الراحل : أنه لو ظهر فى القرون الغابرة لأنشأ له دولة وعرشاً ، وهو إنما قال فيه هذا القول لما عرفه من شدة مراس طيلاق وقوة شكيمته وبعد أمله واعتداده بنفسه وبروز شخصيته . ولا نظنه إلا كان شاعراً بالتفاوت بينه وبين صاحبه فى هذه الخصال حين التفت إليها ونوّه بها أكثر من مرة ، فان الاختلاف فى الخلق من هذه الناحية هو أوضح مواضع التباين بين الرجلين : صاحب العرش الذى تأخّر به الزمن عن عرشه ، والنبى الذى لم يتأخر به الزمن عن شرف النبوة !

« والمعهد بالأغلب الأعم من أبطال النهضات ، وقادة الحركات الاجتماعية والسياسية أن يكونوا صعاب الطبائع

---

(١) ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

ضخام الأنانية ، أولى طمع وكبرياء ، وأنهم إلى أخلاق الغزاة الفاتحين أقرب منهم إلى أخلاق الأنبياء والنُّسَّاك . ولو قدر للهند ألا يتولى الزعامة فيها أحدٌ من غير ذلك الطراز الذى نبغ منه طيلاق لما سمعنا باسم غاندى قط ، ولما كان له دور يؤبه له فى رواية الهند الحديثة ... نعم فليس غاندى بذلك الرجل الجبار بشخصيته ، الغلّاب بحيلته ، ولا هو بالمزاول المداور ، القوى العارضة ، الخلاب الفصاحة ، ولا هو بالرجل الذى تروعك هيئته ، وتستحوذ على إعجابك هيبته . لا بل خلاف ذلك يراه واصفوه من أتباعه وغير أتباعه : يقولون إنهم يبصرونه فى ضواه ، ونحافة جسمه ، ورخامة صوته ، ووداعة نظراته ، فكأنما يبصرون طفلا صغيراً لا بطلا مسموعاً يقود الملايين وينهض لمناوأة أكبر دولة فى الأرض . وقد رأيت له عدة صور مطابقة لهذا الوصف ، وقرأت أخباره مع حكومة الهند ، وأساليبه الغريبة فى مصاولتها ، فلم أشك فى أن رؤساء الحكومة هناك كانت تمر بهم لحظات لا يتمالكون فيها من الابتسام لهذا القدر الذى امتحنهم بكفاح هذا النبى السياسى ، فأصبحوا أمام حملاته التى كان يصبها عليهم صباً لا يدرون فى أى باب يسلكونها : أفى باب اللدد فى الخصومة ، أم فى باب عناد الطفولة الطاهرة البريئة ؟ ولا يكادون يعلمون هل

يجد هذا الخصم العنيد ، أو هو يداعب حكومة الهند برهة ثم هو تتركها وشأنها حين يلهمه هواه .

« إلى هذا الحد يتصور الفكر غاندى غير مطبوع على إثارة البغضاء ، وهى خصلة أفادته أجل فائدة فى مهمته التى قيضته الظروف لها ، وما كانت لتقيض لها رجلا هو أخلق بها منه . . . إنها كانت مهمةً صاحبُها فى غنى عما يتصف به الزعماء الجبابرة من خلق غضوب يستنفرون به فى جانبهم وجانب خصومهم أقصى ما عند الفريقين من نعرة الجنسية وعداوة العصبية . فهى مهمة جهاد سلمى ، سلاحها الرفق والصبر ، وأصلح الناس لقيادتها ذلك الرجل المسالم بطبعه ، الوديع بحكم تكوينه ، الذى يحذّر أتباعه أشد الحذر من مقارفة العدوان والعنف ويقول لهم : إذا كان لابد من العدوان فكونوا أنتم ضحاياه ولا تكونوا أنتم جُناته ، ويعظهم أن يعلوا بأنفسهم عن غضب السباع ، وشراسة الحيوانية . وهى كذلك مهمة تأليف بين عنصرين فرقتهما تراث تاريخية كانت إلى عهد قريب تسيل الدماء ، وتذكى ضرام البغضاء ، وتبعث الأنفة والاعتزاز بالآباء ، فكلما كان القائم بها سهل العريكة ، بعيداً عن الكبرياء الشخصية ، والخترواثة الدينية ، كان ذلك أعون له على الإصلاح والتوفيق ومسح التراث ولم الصفوف . وهى مع هذا وذاك مهمة قناعة

وإعراض عن لذات المدنية وغواياتها . ومن لها غير غاندى المتواضع المتقشف، القانع باليسير من الغذاء والرخيص من الكساء؟ لو أنه كان من رجال المطامع ، وعشاق الدنيا المفتونين بجاهها وزينتها ولذاتها وملاهيها — أتراه كان يخطر له أن يتخذ نفسه قدوة لاتباع دعوته ، فيغدو ويروح فى ثياب من أرخص ما تنسج الهند ، أو يعيش على الفاكهة والأرز

ق ؟ . لقد صار للدين ومكارم الأخلاق كل ما عمله ى ونطق به ، حتى الدعوة إلى نبذ مظاهر المدنية الغربية جد لها حجة من مكارم الأخلاق تحث عليها . فكان لجماعته : « إننى لأستحى أن أخاصم رجلا يمنّ علىّ ملابسى » . . وما هو بهازل ولا متكلف فيما يقول .

« ويخيل إلىّ أن ضمور الشخصية أفاد غاندى أكثر مما أضر بنفوذه ، وأكسبه من الأنصار أكثر ممن أبعد عنه . إذ كانت الشخصية الضامرة هى التى ساعدته على بلوغ تلك المنزلة الدينية الرفيعة ، التى مهدت له سبيل التمكن من أقوى جوانب النفس الهندية — وهو جانب الشعور الدينى — فانه ما زال من سمات النُّسَّاك والروحانيين بساطة المظهر وخشوع النفس والجسم والبعد عن صور السطوة والوجاهة الدنيوية . بذلك يتسم النُّسَّاك الصادقون ، وكذلك يتراءى للناس النُّسَّاك

المتصنعون ، فصاحبنا غاندى فى بنيته النحيلة ، وقده الصغير ، أصدق عنوان للزهد والورع وأقرب صورة إلى الصلاح والتقوى . ويمكن أن يقال على سبيل المجاز أن الطبيعة تورعت فى تركيبه فلم تعمد إلى البذخ والروعة ، فكان الرجل متقشفاً فى الحياة ، وكانت الحياة متقشفة فيه .

« وكثيراً ما رأينا الكبراء ، من ذوى الصلف والنفوذ يقبلون الطاعة لأمثال غاندى ممن لا سلطان لهم فى ذواتهم ، ولكنهم مظهر من مظاهر سلطان الله ، الذى لا يتعالى على سلطانه عظيم ولا حقير : يقبلون الطاعة له ، ولا يقبلونها لمن يتقدم إليهم بمزايا من جنس مزاياهم . لأن الأول يترك لهم الدنيا التى هى موضع تفاخرهم وتناحرهم ، ومثار التنافس والحسد بينهم ، فيخرجونه من ميدان المنافسة ، ولا يرون فى أنفسهم غضاضة من تقديمه عليهم جميعاً . والثانى يتقدم إليهم بحظه من تلك المزايا لينافسوه أو ليستكبروه عن منافستهم : فيسلمون له عند العجز مجبرين أو مختارين كمجبرين . والضعيف الهيئة فى بعض الأحيان أن يغتبط بضعفه الظاهر ، ويحمد عواقبه . لأن الناس لا يكلفونه ما يكلفون القوى ولا يقيسون أعماله بمقياس ذوى القدرة والخطر . . يستكثرون منه القليل إذ يستقلون من غيره الكثير ، ويعجبون منه بما ليس يعجبهم

من سواه . مثله فى ذلك كمثل الطفل الصغير يرفع اللبنة فتسير بحديثه الأمثال ، وليس هذا ولا أضعافه مما يذكر للرجل الكبير.

« . . . . . إن غاندى كما رأينا مما تقدم صاحب زعامة خاصة بموقفه ومهمته ، أى أنه لم يُخلق ليكون زعيما على كل حال . ولا نقول ذلك بخساً لشمائل الرجل ولا تنقُّصاً من قدرته ، فإنه فضلا عن فصاحته وسهولة اجتذابه للسامعين حاصل ، كما نعتقد ، على صفتين من ألزم صفات الزعامة على الناس ، بل هما ألزم صفاتها قاطبة ولولاهما لما أفلح داع قط ، ولا استحق الكرامة زعيم ، وهاتان الصفتان هما : الإخلاص والإيمان .

« فإخلاص غاندى فوق كل شبهة ، وإيمان غاندى قد صفّته المحن ومحضه النسك ، وتنزه عن الشكوك الهادمة والوساوس القاتمة . . عرف له إخلاصه وإيمانه أبناء قومه فعظموه وأكرموه ورفعوه بينهم مكاناً لا مطمع فوقه لطامع . وما أدراك ما مكانه عندهم ؟ إنهم يلقبونه : النبى أو الروح العظيم (ماه ـ آتما) وهى منزلة ليس بعدها ولا أرفع منها فى دين البراهمة إلا منزلة واحدة ... هى الروح الكلية (بارام ـ آتما) وهى روح برهما : روح الله .

ولم ينفرد بتنزيه غاندى عن التهم أبناء وطنه من البراهمة

والمسلمين . فقد شهد بنزاهته كذلك كل من رآه من الأوربيين ، حتى أنصار الاستعمار من الإنجليز ، بل شهد له قاضيه الذى أمضى الحكم بالسجن عليه ، ورأينا بين كتاب الإنجليز من يقول فى مجلة « نيشن » غير متلعثم ولا محترس: إنه ليس من التجديف أن يقارن بين غاندى والمسيح ، وهى كلمة كبيرة من إنجليزى مسيحى فى العصر الحديث . ولم يستطع السير فالنتين شيرول أن يلقى عليه الغبار الأسود الذى لا يعييه إلقاؤه على مخلوق يناهض الاستعمار البريطانى ، فقال : إنه فى الحركة الهندية « بلا فأس يشحذها لنفسه » . . . وهذه الفأس عندهم هى كناية عن المصلحة الشخصية والأغراض المريبة . وكم من فأس خلقها شيرول وشحذها على حسابه لأناس لا يحملون الفؤوس ! » .

° ° °

خلصت الزعامة لغاندى على هذا النحو الذى يعد أعجب ما حدث من نوعه فى تاريخ الزعامات السياسية . لأنك تستطيع أن تقول : إنه بلغ الزعامة بغير مجهود ، كما تستطيع أن تقول: إنه بلغ الزعامة بأكبر مجهود يدخل فى طاقة إنسان .

فغاندى لم يزاحم أحداً على زعامة وطنه ، ولم يزاحمه أحد عليها . فهى زعامة من ثم بغير مجهود .

ولـكن غاندى قد استحق الزعامة باعتراف موافقيه فى الخطة ومخالفيه ، واعتراف المستعمرين أنفسهم ، لأنه انتصر فى أصعب المعارك على المجاهدين : وهى معركة الشهوات والمطامع ، وراض نفسه على ترك كل مايصعب تركه واحتمال كل مايصعب احتماله ، فدانت له النفوس سهلة القياد بعد أن دانت له نفسه حيث لاتدين النفوس ، وكانت أكبر شهادة له بين أبناء وطنه من أكبرهم وأولاهم أن ينفس عليه ، وهو الشاعور تاجور ، فقال عنه من كلام كثير : « إنه أعظم شخصية إنسانية ، رآها ».

ولما خلصت له زعامة وطنه على هذا النحو مضى بها على سنته التى لايحيد عنها ، وهى سنة الحب الشامل والاحتراس من كل نزعة من نزعات الـكراهية والعداء ، وإن أصابه شر مايصاب به المرء من أذى الـكراهية والعداء .

ولا تخالجن أحداً ذرة من الشك فى صدق غاندى حين يقول إنه يحارب الاستعمار ولايكره المستعمرين . فهكذا كان فى كل صغيرة وكبيرة من حركاته ودعواته منذ بدأ جهاده فى أفريقية الجنوبيـة : كان يحارب الأوربيين والإنجليز ولا يعاديهم ، وكان يرى لهم عليه حقوق الإنسانية كما يراها لأبناء وطنه وللمظلومين من أبناء الشعوب الملونة . فجنّد فرقة

غاندى الزعيم

للصليب الأحمر فى أيام حرب البوير ، وأنشأ مستشفى فى جوهانسبرج لعلاج جميع المرضى بالطاعون حين فشا فى جوانبها ، وهادن الحكومة فى أوقات الحرج حتى جلب على نفسه سوء الظنة من أبناء وطنه أنفسهم ، فضربوه (فى سنة ١٩٠٧) : ضرباً مبرحاً ليقتلوه ، ولم يتركوه إلا وهم يحسبون أنه قد مات .

وهكذا كان يصنع فى خصومة الحكومة الهندية على اختلاف موقفه منها . فكان يدعو أحياناً إلى التعاون وأحياناً إلى المقاطعة ، واشتد فى حركة المقاطعة (سنة ١٩٢٠) حتى أمر أتباعه بالاستقالة من وظائف الحكومة ورد الرتب والألقاب الإنجليزية والإضراب عن أداء الضرائب ، وعن المساهمة فى القروض الحكومية ، وحرّم عليهم كل سلعة أجنبية ، ونقض جميع القوانين التى تحتكر بها الحكومة سلعة من السلع ، وتجاوز هذه القوانين إلى غيرها إذا وجب تحدى جميع القوانين لشل حركة الحكومة .

ولكنه كان فى كل هذه المواقف ، معاوناً أو مقاطعاً ، يوصى ويكرر الوصية باجتناب العنف واحتياله عن رضى وطواعية ، واستخدام السلاح الوحيد الذى كان يرى أنه سلاح النصر فى حالتى النجاح والإخفاق ، وهو سلاح المحبة

والمسالمة . وكان يقول لأتباعه : حاربوهم بالسلاح الذى يخافونه لا بالسلاح الذى تخافونه أنتم . وبينوا لهم أن سلاحهم لايخيفكم فتفلّوا ذلك السلاح فى أيديهم . أما السلاح الذى كان غاندى يرى أنه يخيف المستعمرين فهو سلاح المحبة . لأنه سلاح جديد لم يتعودوه .

ومن اعتزازه بهذا السلاح أنه وصفه لهتلر . . نعم وصفه لهتلر كما يصنع أصحاب مصانع الأسلحة إذ يصفون مخترعاتهم الماضية لمن يحتاجون إليها . فكتب إلى هتلر قبيل الحرب العالمية الثانية يقول له بعد مقدمة يذكر فيها تردده قبل الكتابة إليه : « . . . وظاهرٌ جداً أنك اليوم الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يمنع حرباً قد تهبط ببنى الإنسان إلى درك الهمجية . فهل من اللازم أن تبذل هذا الثمن لأى غرض من الأغراض بالغاً مابلغ من الوجاهة فى نظرك ؟ أتراك تصغى إلى توسل رجل تعمد عن روية طويلة أن يتجنب وسائل القتال فلم يفته نصيب غير قليل من النجاح ؟ غفرانك على أية حال إن كنت قد اخطأت فى الكتابة إليك . . . »

وهذا الخطاب يدل على أساليبه السياسية ، كما يدل على اعتزازه بسلاحه . فإن غاندى صارح الإنجليز بوجوب الجلاء عن الهند بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ، وقال إنه

لا يبغي بذلك إعناتهم في وقت المحنة ، وإنما يعجل بالطلب لأنه لا يرى ما يوجب تأخير الجلاء إلى ما بعد وقوف القتال في الميادين الأوربية أو الآسيوية ، ولكنه مع هذا لم ينظر إلى الحرب العالمية كأنها فرصة موانية يترقبها لمصارحة الإنجليز بطلب الجلاء ، وحاول بما في ميسوره أن يثني عنها من يخشى منهم الإقدام عليها .

وتهتاج الخواطر ما تهتاج ، وتتيبغ الدماء ما تتيبغ : وتفلت زمام العقول والأعصاب من قبضة العقيدة والدعة على السواء . وغاندى على عبده في صدق الخصومة سراً وعلانية ، وفي صدق الإيمان بسلاحه وصدق النفور من كل سلاح غيره . ولم يبح قط لنفسه أو لأحد من أعوانه أن ينسى المحبة في حركة واحدة يقابلون بها المعتدين عليهم : أو ينسى الصدق في كلمة واحدة يذكرونها عنهم . وأدهش البريطانيين بشدة حرصه على صدق الكلمة الواحدة في حادث — حتى الخصوص — كان أخلق الحوادث أن يطلق الألسنة بالاتهام في غير تمحيص وإحجام ، وهو حادث امرتزار المشهور .

في الثالث عشر من شهر أبريل سنة ١٩١٩ ، وقعت أكبر وصمة في تاريخ الاستعمار البريطاني للهند ، وهي مذبحة امرتزار وكانت هذه المذبحة أضخم خطأ تجمعت فيه أخطاء الإدارة

والسلطة العسكرية ، فى حساب السياسة ، وحساب المبادىء الإنسانية ، وحساب العرف والنظام .

كانت الهند كلها تشتعل بالسخط والغضب ، وكان الهندوسيون والمسلمون على السواء على أشد النقمة من
مة البريطانية . لأنها أخلفت وعودها لهم ، وناصبت
الإسلامية عداء صريحاً فى تأييدها هجوم اليونان على
الأناضول ، بعد أن حارب المسلمون فى صفوفها
ن على وعد قاطع منها ألا تمس الخلافة الإسلامية
مة الجيوش التركية .

خرج غاندى فى رحلة سلمية يهدىء أبناء وطنه ويجمع
مين والمسلمين على خطته فى اجتناب العنف وإهراق
الدماء . فقبضت عليه الحكومة وأعادته إلى بومباى . وسرى
الخبر فى أرجاء الهند فوقعت بعض حوادث العدوان هنا وهناك
وكانت « امرتزار » من المدن التى وقعت فيها هذه الحوادث
ونهب فيها بعض الدور والدكاكين .

فوصل الجنرال « سير ميشل داير » إلى المدينة يسبقه
إعلانٌ — لم يعلم به أحد — بمنع الاجتماعات ، وكان اليوم
الثالث عشر من شهر ابريل موعد اجتماع دينى فى ميدان محصور
يسمى « جلنوالا باغ » فاعتقد الجنرال أن المجتمعين يتحدّونه

ويعصون أمره . فأمرهم مرة أخرى بالتفرق ، فلم يستطيعوا أن يتفرقوا على عجل لأن المكان محصور ، فأطلق عليهم مدافعه الرشاشة حتى نفدت ذخيرته . وقتل فى هذا اليوم عدد عظيم من المجتمعين والمجتمعات يقدرهم بعضهم بأربعماية ، ويبلغ به بعضهم أربعة أضعاف هذا العدد . ولم يكتف الجنرال بإهراق الدماء حتى أضاف إليه إذلال النفوس . فأمر ألا يعبر الهنود طرقاً معينة إلا زحفاً على الركب ، لأنها الطرق التى أهين فيها بعض السيدات خلال الحوادث التى وقعت قبل وصوله إلى المدينة .

إن الجريمة أفظع من أن يلتزم فيها أقل حيطة فى الاتهام .

ولكن غاندى أبى — مع فظاعة الجريمة التى تغرى بكل تهمة — أن يثبت فى محضر التحقيق حرفاً واحداً لا تقوم البينة القاطعة على ثبوته ، فلما اجتمعت لجنة التحقيق الوطنية لكتابة تقريرها عن الحادث ، ووردت فيه بعض الأقوال التى يؤخذ منها أن الجنرال « داير » تعمد أن يستدرج المجتمعين إلى الأماكن المغلقة التى ينالهم فيها الرصاص ، أصر على حذف هذه الأقوال لأنها فى رأيه « لا تعقل » ولم يقم عليها من الأدلة ما ينفى الشبهة عنها . ثم أصر فى مؤتمر « امرتزار » الذى عقد عند نهاية السنة على استصدار قرار من المؤتمر كله باستنكار أعمال

العنف التى وقعت من جمهرة الهنود فى البنجاب والسكوجرات فصدر القرار على الرغم من معارضة كثير من أقوى الأعضا لاقتراح غاندى ، وعلى رأسهم « داس » ومؤيدوه .

ويشبه هذا الحادث فى صدق الكلمة وأمانة العقيد إعلانه وقف العصيان المدنى على تبعته وحده بعد الهياج الذى انفجر فى المدن الهندية لمناسبة زيارة ولى العهد الإنجليزى لمدينة بومباى (١٩٢١) .

فى ذلك الوقت كان رؤساء المؤتمر جميعاً معتقلين أو مسجونين ، وكان الطلقاء منهم على خطر من الاعتقال أو السجن . وكان غاندى يتولى رئاسة صحيفة « الهند الفتاة » التى كانت بمثابة صحيفة المؤتمر الرسمية . فقرر المؤتمر إسناد السلطا التنفيذية إليه فى خلال هذه المحنة ، واتفق الرأى على إعلان العصيان المدنى فحدث على أثر إعلانه أن الدهماء ثاروا فى « شورى شورا » وقتلوا فى هذه الفتنة اثنين وعشرين من رجال الشرطة . فلم ينتظر غاندى حتى يجمع المؤتمر ويعرض عليه إعادة النظر فى قراره ، بل أعلن باسمه وحده وقف حركة العصيان المدنى إلى أن يتهيأ سواد الشعب لفهم هذه الحركة وتنفيذها على وجهها المقصود : وهو المسالمة واجتناب كل عمل فيه عدوان على أحد من الحاكمين أو المحكومين . واشتدت

الثورة عليه فى المؤتمر من جراء هذا الإعلان الجرىء، واقترح أحد الأعضاء توجيه اللوم إليه ، وناصره أعضاء آخرون . ولكنه عند أخذ الرأى لم يظفر بكثرة الأصوات .

ومن الجائز أن هذه المواقف المستغربة التى كان «المهاتما» يقفها من قومه فى أحرج الأوقات وأشدها جماحا بالنفوس ، كانت تمتحن قداسته فى نظرهم أعسر امتحان تمر به زعامة سياسية ، ولكنه كان هو الناجح أبداً فى كل امتحان من هذا القبيل ، وكان أبناء قومه يخرجون من كل محنة وقد انقلبت فى نظرهم إلى امتحان عسير لهم، يمتحنهم فى قدرتهم على مجاراة القداسة وحاجتهم إلى رياضة النفس على طاعتها والائتمار بأمرها . فيخرج غاندى من كل محنة من هذه المحن وهو أعلى مكاناً وأقدر على قيادة الخاصة والعامة فى أوقات الفتنة والضيق .

أما الانجليز فقد كانت مخالفة غاندى لهم ومخالفته لنزعات قومه تواجههم معاً بظاهرة إنسانية عجيبة لا نظير لها فى حضارتهم الغربية : ظاهرة يعرفون منها ما يعرفون ويجهلون منها ما يجهلون ، ويحيط بها كل ما يحيط بالمجهول من الهيبة والاستغراب ولكنه استغراب لم يخل قط من عطف وتقدير .

أكبره قومه ، وأكبره خصومه ، وكانت القوة الروحانية

التى استحقت هذا الإكبار هى الجيش الزاخر الذى يحارب به فى ميدانه ، ويختار ميدانه حيث شاء كما يشاء . لأنه لا ينهزم فى ميدان اختاره ولا يؤمن بأنه ينهزم ، ولا يبالى الهزيمة إذا جاءت بوادرها بغير مايروم .

* * *

كان الانجليز يحارون فى هذه القوة كيف يلقونها وكيف يعالجونها ، إلا شيئاً واحد لايحارون فيه ، ولا يحار فيه غيرهم وهو جدارتها بكل احترام .

وتجلى هذا الاحترام فى تلك المحاكمة الفريدة التى لم يشهد لها مثيل فى تاريخ القضاء كله ، وهى محاكمة « المهاتما » المشهورة التى بدأت فى الثامن عشر من شهر مارس سنة ١٩٢٢ أمام محكمة أحمد أباد .

دخل المتهم الهزيل إلى ساحة المحكمة ، فوقفت المحكمة إجلالا له حتى استوى فى مكانه .

وسئل عن التهمة — وهى تعريض الحكومة للكراهية وتصعيب مهمتها فى حكم الهند — فأجاب بأنه « مذنب » على حسب القانون القائم . ثم وجه خطابه إلى القاضى « برومفيلد » قائلا : « إنك لا معدىً لك فى مقامك هذا من أحد أمرين : إما أن تعتزل منصبك وتنفض يدك من السوء . وإما أن

تصدر حكمك بأقسى العقوبة إذا اعتقدت أن هذا النظام وهذا القانون الذى تطبقه فيهما الخير لأبناء هذه البلاد ، وأن عملى من ثم ضار بمصالحهم » .

فمضى القاضى فى تلخيص التهمة . وكان فى تلخيصه كأنما يستعطف المتهم ويعتذر للحكومة لأنها اضطرت إلى تقييد حريته وكفه عن الاسترسال فى دعوة تحول بين الحكومة — كحكومة — وبين القيام بعمل من الأعمال التى تتولاها الحكومات . ثم وجه الخطاب إلى « المتهم » فقال : « إنك رجل يرى فيك الناس ، حتى مخالفيك ، إنساناً من ذوى المثل العالية والحياة النبيلة بل المقدسة » ثم نطق بالحكم فإذا هو يقضى عليه بالحبس البسيط ست سنوات » . وعقب على ذلك قائلا : « إنه لن يكون أحد أسعد منه إذا استخدمت الحكومة حقها فقصرت هذه المدة أو أطلقت سبيله » . وعاد يسأل غاندى مهوناً لوقع هذا الحكم : ألم يحكم بمثله من قبل على طيلاق ؟ ! . .

فكان مسلك القاضى فى القضية كلها مسلك من ينفض الإدانة عن نفسه ، ويحاول أن يبرىء نفسه أمام العالم وأمام التاريخ من اتهام يخشى أن يقترن باسمه ، ولم يكن مسلك رجل يعاقب ويدين .

لم يكن غاندى « يمثل » فى إدانة نفسه ، ولم يكن القاضى « يمثل » فى تبرئة نفسه ، ولكنه كان يعتذر للقانون ويعتذر للسياسة فى حضرة قوة أكبر من القانون وأكبر من السياسة ، وهى القوة التى لا تجهل ولا يجهل لها أثر . وكان أثرها المحقق أنها قد غلبت قانون الحاكم الأجنبى كما غلبت جيوشه وأساطيله ، وانتصرت بالسلاح الذى اختاره صاحبها ، وقال غير مرة أنه يحارب به لأن السلاح الماضى هو السلاح الذى يخافه الخصم لا السلاح الذى يخافه حاملوه .

ولقد أسف أناس من فضلاء الهند ومن عباقرتها النابهين وفى طليعتهم تاجور ، لأن غاندى سخر هذه القوة الروحانية المثلى فى خدمة السياسة . ولكن الذين عاشوا منهم بعده ، أو عاشوا إلى أخريات أيامه ، قد علموا أنه كان على صواب فيما صنع ، لأنه لم يفسد روحانيته ، بل نقل الروحانية إلى السياسة فأصلحها ، وجعلها فى نظر الأنصار والخصوم حرفة جديرة بقديسين .

* * *

لقد كانت هذه القوة الخارقة عنصراً فعالا فى تاريخ أربعمائة مليون من الآدميين ، وستظل عنصراً فعالا فى تاريخ البشر جميعاً إلى زمن بعيد .

بم نقيسها إذا أردنا أن نذرع آمادها وندرك أغوارها وآفاقها ؟ .

أبحماية البقرة أو عبادتها ؟ أبالصيام إلى أجل أو بالصيام حتى الموت ؟ أبالتقشف والزهادة ؟ أباجتناب مطلق لكل ضرب من ضروب العنف بغير قيد ولا شرط ، ومع جميع الناس ، وفي جميع الأحوال ؟

كلا . إنما هذه كلها صور وعناوين ، وإنما القوة الصحيحة من وراء هذه الصور والعناوين ، وكل قوة صحيحة في نفس الإنسان فهي القوة التي تعدو به طوره المحدود ، وتخرجه من أثرته الضيقة وتقيمه إنساناً يعلو على صغائر الساعة ، ويدين بالإنسانية الشاملة في عمرها الخالد المديد . وما العبرة في القياس الأصيل إلا بهذه القوة الصحيحة ، دون ما تتسمى به من الصور والعناوين .

وليس هذا القياس بدعاً في القوى الروحانية وحدها . فقد نجد له مثيلا في القوة الجسدية وفي هذه الملموسات المادية التي نحسبها مرجع الصحة والصدق والفهم العملي الذي لا تشوبه المغالطة والخداع .

فهل من « مادية جسدية » أدخل في باب المادة والتجسد من غذاء الأبدان ؟

إنه المادة من صميم المادة فى عرف الواقعيين والمثاليين ، والخياليين . ومع هذا نحن نحسه على نحو ، وننتفع به فى أجسادنا على نحو آخر .

نحن ننتفع بالغذاء لأنه فحم وجير وحديد وملح وفسفور إلى غير ذلك من المعادن المحدودة إلى تدخل فى بنية الأحياء . فمن الذى يأكل طعامه لأنه فحم أو جير أو حديد أو ملح أو فسفور ؟ إن الطبيعة لم تخدع الناس حين جعلتهم يأكلون ويشربون ، لأنهم يطلبون طعما حلواً ، أو طعما حامضاً ، أو طعما مرّاً ، أو طعما يجلب الشهية ويلذ فى المذاق ؟

إن الطبيعة لم تخدعهم بهذه العناوين التى اتخذتها أذواقهم ولم تدخلها فى تحليل المعامل ، ولا أدخلتها فى مناقشة الأفكار ، ولا هى مثلت لهم الحاجة البدنية بمصطلحات الكيمياء ، ولكنها ترجمت لهم نفع الغذاء بهذه الطعوم التى تسيغها الأذواق ، ولولا هذه الطعوم لما كان الغذاء .

وهى لم تخدعهم كذلك ، لأنها ساقتهم إلى حفظ نوعهم لذة جسدية أو بعاطفة من عواطف الشوق والحنان ، ولكنها تكلم أكثر من لغة واحدة حين تعبر عن حقائقها ، وكلها عند ذلك صدق حاصل على اختلاف العبارات .

فالروحانيون لا يضللون العقول ، والماديون لا يعرفون

معنى التضليل إذا كانوا يعبرون عن حقائق الحياة بلغة واحدة لا تقبل التنويع . فمادتهم التى يجمعون فيها الصدق كله أشد تضليلا للأحياء من كل دعوة روحانية ، إذا جعلنا اختلاف التعبير عن قوى الحياة من قبيل التضليل ، أو جعلنا اختلاف الشيء فى الحس ، وفى وظائف البنية الحية ، آية على التناقض والبطلان .

هكذا تعبر الطبيعة عن غذاء الأبدان .

فلماذا نكذبها إذا هى عبرت بمثل هذا التعبير عن غذاء الأرواح ؟

إننا إذن لا نصدق مع الروحانيين ولا نصدق مع الماديين !

ولك أن تكون مادياً ، أو واقعياً ، أو حسياً ، فى مناقشة الألفاظ التى قالها غاندى والآراء التى بشر بها كما تشاء . ولكنك لن تكون مادياً ، ولا واقعياً ولا حسياً ، إذا أنكرت الواقع المحسوس .

والواقع المحسوس أن غاندى قد حفز روحانية الهند إلى عمل من أعظم أعمالها فى تاريخها الطويل ، وأنه قد أتى بخارقة لم يأت نظراؤه بأعظم منها فى جميع أطوار التاريخ .

عقيدته

يسبق إلى الظن — حين يذكر غاندى زعيم الهند — أنه يدين بالبرهمية : ديانة الهند الكبرى ، وأقدم عقائدها المعروفة .

ولكن الحقيقة أنه لايدين بالبرهمية ولا بالبوذية ، التى هى أشهر المذاهب فى خارج الهند بعد الديانة البرهمية .

وإنما يدين — كما أسلفنا فى الكلام على نشأته — بنحلة خاصة من نحل تلك الديانة القديمة ، وهى النحلة الجينية ، ولايزيد عدد أتباعها فى الهند اليوم على مليون ونصف مليون .

ولاغنىً فى الكلام على عبقرية غاندى عن تقرير هذه الحقيقة الهامة ، لأنها توضح لنا تلك العبقرية من جانبين خطيرين : أحدهما أن الجينية — مع كونها نحلة دينية — هى فى الواقع ثورة قومية على سلطان الغزاة الآريين ، بل هى أقدم ثورة قومية روحية فى الهند على ذلك السلطان . لأنها أنكرت نظام الطبقات الذى سجل به الغزاة سيادتهم على الشعوب الهندية الأصيلة ، وأحنت فى كتابة أسفارها المقدسة باللغة الشعبية المعروفة بالبراكريتية ، وهى مشتقة

من السنسكريتية القديمة لغة الغزاة الآريين ، مع تحريف وزيادة طرأت عليها من اختلاط الغرباء بأبناء البلاد الأصلاء .

فالمهاتما إذن قد ورث دواعى الثورة على — السيادة الغالبة — من عقيدة الجينية ، ولم يكن فى حاجة إلى جهد كبير ليتجه بفكره وطبعه إلى مقاومة الغزاة الجدد فى القرن العشرين . . .

وقد ورث كذلك دواعى الإصلاح الاجتماعى من تلك العقيدة القومية الروحية ، فلم يكن فى حاجة إلى مشقة كبرى للتفكير فى إنصاف الضعفاء ، والتسوية بين الطبقات .

أما الجانب الآخر الذى توضحه لنا تلك العقيدة من عبقرية غاندى ، فهو مصدر آدابه الروحية التى كثر الكلام عليها بين الكتاب من الغربيين .

فقد سمعنا كثيراً أنه مدين بآداب السلام والمحبة لهذا الكاتب أو ذاك من الحكماء الأوربيين ، وذكروا اسم « تلستوى » الحكيم الروسى على الخصوص ، لأنه كان أوفر الأعلام العالميين نصيباً من أحاديث الناس وتعليقاتهم ، حين نشأ غاندى وأخذ فى الاطلاع على الثقافة الأجنبية ، ولأن غاندى نفسه قد خاطبه مرة خطاب التلميذ للأستاذ ، وأشار إليه غير مرة فى أحاديثه ومقالاته ، وجاءت دعوته بعد دعوة

تلستوى فى البلاد الروسية ، على مبادىء السلام والمحبة واجتناب العنف والانتقام .

إلا أن الواقع الذى لامراء فيه أن مبادىء غاندى جميعاً مستمدة من العقيدة الجينية ، وأنه لم يدع إلى خطة واحدة فى الإصلاح الاجتماعى أو السياسى لا ترد بجملتها وتفصيلها إلى تلك العقيدة . وكل ما استحدثه فيها من الخطط العصرية فهو من تصرفه ووحى عبقريته ، ونزعة مزاجه وتفكيره ، على حسب الحوادث والمناسبات .

فعبقرية غاندى لا تُفهم على حقيقتها بمعزل عن العقيدة الجينية ، وهى أحوج النحل الهندية فى خارج الهند إلى شىء من البيان والتوضيح .

تنسب هذه العقيدة إلى «الجينا» بمعنى الظافر أو الغلاب ، ويراد بالغلبة هنا غلبة الإنسان على شهواته وغوايات طبعه ، ويلقب « بالجينا » عندهم كل إمام من أئمة الهداية يظهر فى أوانه المقدور ، وهم يظهرون على التوالى فى كل دورة من دورات الدهر الطويلة ، وهى عندهم دورات أبدية بغير نهاية ولابداية ، تعود كلما انتهت دواليك من أزل الآزال إلى الأبد الأبيد .

ويظهر فى كل دورة من الدورات أربعة وعشرون إماماً متلاحقين على حسب الحاجة التى تدعو إليهم ، ثم يفارقون

عالم الجسد إلى غير عودة ، لأنهم يخلصون من الجسد أرواحاً مصفاة ، لا تبقى فيها بقية من شوائب المادة تردهم إلى حياة التجسيد

والإمام الذى يدين به غاندى هو آخر هؤلاء الأئمة فى هذه الدورة الدهرية ، ظهر فى القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت دعوته معاصرة للدعوة البوذية ، ولعلها قد سبقتها بجيل أو نحو جيل . . أما إذا أخذنا بكلام أتباعها فهى أقدم من ذلك بعدة أجيال ، بل بعدة دورات من آماد الأزل القديم

ويسمى هذا الإمام « ترثنكارا ماهافيرا Tirthankara Mahavira » وهو اسم مركب من عدة أسماء ، معناها : البطل العظيم صانع المَعبر أو القنطرة ، كناية عن العبور باتباعه فى طريق النجاة .

فكلمة « ترثا » معناها المعبر أو القنطرة ، وكلمة « كارا » معناها الذى يصنع ، وكلمة « فيرا » معناها البطل أو الظافر ، وكلمة « ماها » معناها العظيم ، ومنها كلمة « المهاتما » التى لقب بها غاندى بمعنى الروح العظيم .

والظفر الأعظم الذى يستحق به الإمام لقب الغلاب أو « الجينا » من كلمة « جى » — أى النصر — هو الظفر على

الشهوات الكبرى ، وهى الغضب والكبرياء والجشع والخداع ، ومن الشهوات التى يتغلب عليها ما هو دون ذلك فى القوة وصعوبة المراس ، وهى الهم والخوف والاشمئزاز ولذة الجنس ، وما إليها من اللذات .

وخلاصة الدين عندهم اجتناب الأضرار بجميع الأحياء .

ويلخصون هذه الخلاصة فى كلمة واحدة هى كلمة « أهمسا » . . وهى كلمة مركبة من كلمتين : همزة النفى عندهم ، وهمسا : بمعنى الإضرار .

وهم لأجل ذلك نباتيون لايبيحون أكل الحيوان على اختلافه ، فيحرمون لحوم جميع الأحياء من الأنعام والماشية والسمك والطير ، ولا يأكلون البيض والشهد ، ويستثنون اللبن لأنه مما يرضعه الإنسان فى مهده ، فلا تحرم عليه « الألبان » لأن الرضاعة مقترنة بالرحمة والحنان .

ومن عجائب اعتقادهم أنهم آمنوا بوجود ألوف الألوف من الجسيمات الحية التى لاتراها العين قبل أن يعرفها العلم الحديث . فحرموا الخمرة والجعة لأن الاختمار يقضى على تلك الأحياء ، وحرم غلاتهم كل نبات ينمو تحت الأرض — كالبطاطس والفجل والجزر — لاعتقادهم أنها تحمل من باطن الأرض ألوفا لاعداد لها من تلك الأحياء الصغار .

وليست مسألة الأوامر والنواهى عندهم مسألة تحليل وتحريم، كما هو شأنها فى جميع الديانات. ولكنهم يعملون الشىء أو يجتنبونه لأن العمل به أو اجتنابه يناسبان طبيعة الروح.

فالسمو إلى عالم الروح هو غاية الغايات من ترقى الإنسان فى معارج الحياة.

وعلامة الاقتراب من عالم الروح أن المرء لا يقتل ولا يغضب ولا يسىء إلى أحد من الأحياء، لأن شواغل الجسد هى التى تسوّل له العدوان وتثير فيه البغضاء، فمن غلبته هذه الشواغل بقى فى عالم الجسد وعاد إليه، ومن غلبها فآية الغلبة التى يسمو بها إلى عالم الروح هى «المحبة» والسلام. إذ كانت الروح لا تشتمل فى طبيعتها على داعية من دواعى النفور والنزاع، وإنما تأتى هذه الدواعى جميعاً من شواغل المادة، أو من «الكارما» كما يسمون هذه الشواغل، ويطلقونها على كل عمل من الأعمال الجسدية التى تحول بين الإنسان وبين الصفاء والنجاة.

وللأحياء عندهم خمس درجات يعلو بعضها فوق بعض على حسب نصيبها من الإحساس: أول هذه الدرجات درجة الأحياء ذات اللمس، وتليها درجة الأحياء ذات اللمس والذوق، وتليها درجة الأحياء ذات اللمس والذوق والشم، وتليها درجة

الأحياء ذات اللمس والذوق والشم والسمع والنظر ، وتليها درجة الأحياء ذات العقل أو الروح « ماناس » Manas وهى نوع الإنسان .

وفى الإنسان وحده تتجلى الروحانية العليا فى الوجود ، ومنهم من يعتقد أن الروح الإلهى لم يصعد إلى الروحانية الإلهية من غير هذا الطريق .

ولابد من الولادة مرة بعد مرة للخلاص من أوهاق الجسد ونقائص المادة وحجب الشهوات . فإذا مات الإنسان ترك فى الأرض جسده وذهبت روحه بجسدين متلابسين أحدهما أرق من الآخر وأصفى ، ولن يخلص من محنة التجسيد حتى ينسلخ عن جميع هذه الأجساد . ولولا ذلك لاستطاع الإنسان أن ينجو إلى عالم الروح بقتل نفسه بيديه ، وهو عندهم غير جائز له ، كما لا يجوز له قتل سائر الأحياء . ومن هنا لا يقولون بقتل المرأة نفسها بإحراقها مع زوجها ، كما تقول الكثرة من البرهميين .

* * *

وليس الزواج محرماً فى النحلة الجينية بطبيعة الحال ، ولكن الإمام الذى يرتفع إلى درجة الهداية فى دورة من الزمن لاينجو من العودة إلى الولادة ولا يبلغ « الموكشا » أى

الخلاص إلا إذا عصم نفسه من كل علاقة جنسية ومنها الزواج . فهو يولد من جديد مادام يلد أو ينقاد لغريزة التناسل ، ولو لم يكن له أبناء .

ولا ينحصر الزواج بين الجينيين فى أبناء طبقة واحدة . لأن الجينية لا تدين بتفاوت الطبقات ولا تجعلها أصلا من أصول الدين . فعمل الإنسان هو الذى يرتفع به أو ينحدر فى طبقات الخليقة . وتنص كتبهم نصاً صريحاً على أن الإنسان بعمله وحده يصبح من البرهمان أو الكشترية أو الفيشا أو السدرا ، وهم المنبوذون . ومن الرذائل التى تحول عندهم بين الانسان والخلاص الروحانى أن ينظر إلى أحد نظرة استعلاء ولو كان من المجرمين . فالحب Daya هو ملاك جميع الأخلاق والفضائل ، وآية الحب أن تحسن ، ولا تنتظر الجزاء ، وأن تفرح لفرح غيرك وتحزن لحزنه ، وتبتئس لسوء حظ المسىء الذى حرم نعمة الإحسان .

وعلى كل جينى أن يروض نفسه على الشظف والقناعة والصبر وضبط الشعور ، وأن يعطى دائماً ولا يأخذ من أحد شيئاً بغير رضاه .

° ° °

وتعتبر الجينية فلسفة كونية كما تعتبر من ديانات التعبد والسلوك .

فالكون عندهم عناصر أربعة هى : الزمان ، والمكان ، والروح ، والمادة . ويضاف إليها عنصران آخران يربطان بينها ، وهما : الحركة ، والسكون .

والمادة عندهم مركبة من أجزاء دقيقة لاتتجزأ ، كالجوهر الفرد فى تعريف فلاسفة اليونان .

ولا تسبق الروح الجسد فى تركيب الإنسان . بل تنشأ الحياة الجسدية قبل الحياة الروحية ، ثم تترقى الروح إلى مرتبة الصفاء بما تحاوله من مغالبة النوازع الجسدية واستخلاص حريتها من القيود المادية . ولها فى ذلك ثلاث مراحل : أولاها سابقة لتطور قواها ، وثانيتها فى خلال هذا التطور ، ونهايتها تأتى بعد انتهاء التطور وبلوغ مرتبة الخلاص والصفاء .

وعلامة التطور الناجح ثلاث : عقيدة الحق ، ومعرفة الحق ، وعمل الحق . ولا سبيل إلى هزيمة الروح فى صراعها مع الجسد إذا تناسقت فيها هذه الصفات .

وهم يقولون بالروح الذاتية لكل حى من الأحياء ، ولا يقولون بفنائها فى روح أكبر منها ، ويخالفون بذلك عقيدة البراهمة الأولين فى وصف الله وتجريده من الذات ،

وقد يصفون الله بصفات الخلق والتكوين ، ويتجهون إليه بالصلاة طلباً للهداية والتعليم والمعونة على قمع الشهوات .

فالجينية تدين بالذات الإلهية ، ولا تعتبر الإله ، معنى ، خلوا من الوحدة الذاتية ، ولكنها تستلهمه الصواب كما يستلهم التلميذ معلمه ، وتسترشد به كما يسترشد السارى بدليله فى ظلمات المجهول ، وتقول لأتباعها إن الله لا يعين أحداً ما لم يكن منه عونٌ لنفسه . فلا مناص من عمل الانسان واجتهاده قبل كل خلاص واهتداء .

وفى جملة هذه الفلسفة الكونية ما يرجح الظن برجوع الفيلسوف الألمانى ، هيجل ، إليها ، فى تفصيل مذهبه الذى تسمى بالمثالية الثنائية Dialectic Idealism .

فالجينيون يقولون بأن الوجود الصحيح جوهر dravya .

والجوهر عندهم لابد أن يحتوى فيه ثلاث حالات : حالة النشوء ، وحالة النقض ، وحالة الدوام .

« فلا يظهر شىء فى الوجود بغير نقض ، ولا يكون نقض بغير نشوء ، ولا سبيل إلى نشوء ونقض فى غير دوام »

وخلاصة مذهب « هيجل » أن كل شىء ينشىء نقيضه . ثم يجتمع الشىء ونقيضه فى موجود أكمل من الموجود الأول ، ثم يعود هذا الموجود الأكمل فينشىء نقيضه كرة أخرى ،

حتى تستوفى الحقائق وجودها من جملة وجوه ، ولا تنحصر فى وجه واحد .

وهذا التطور فى مذهب « هيجل » ينتهى إلى ظهور « العقل الواعى » فى الكون حتى يظهر فيه الانسان . . وقد أسلفنا أن الجينيين يقولون أن تطور الانسان هو المظهر الذى تتجلى به الروح فى هذا الوجود .

* * *

وتشتمل الكتب الجينية على وصايا كثيرة تدل على أنهم يقينيون فى عقيدتهم الدينية ، وليسوا من الشكوكيين « اللاادريين » . كما تدل على أنهم يقينيون جازمون فى مسائل الأخلاق .

وهذه أمثلة من تلك الوصايا مقتبسة من كتبهم الكثيرة :

* * *

الإحسان بغير عقيدة ، لن يكون وسيلة للخلاص .

* * *

على المرء أن يعامل الخلائق جميعاً ، كما يحب أن تعامله .

* * *

إن تأملات الشكوكيين لا تنتهى إلى معرفة . فهم بأنفسهم لا يصلون إلى الحق ولن يصلوا بغيرهم إليه .

الرعاة الصالحون ، الكهان ، يرحمون جميع الكائنات ، ويجتنبون الخبائث ، ولا يمدون أيديهم إلى طعام يصنع لهم خاصة ، ولا يقدمون على شر أو إساءة .

* * *

غلبة النفس عسيرة ، ولكنها إذا تيسرت فكل شيء مغلوب .

* * *

لا معرفة للحق بغير عقيدة فى الحق ، ولا سلوك على الحق بغير معرفة للحق ، ولا خلاص بغير سلوك ، ولا كمال بغير خلاص .

* * *

ينتصر الإنسان على ألوف من الأعداء الشجعان ، ولكنه أعظم من ذلك انتصاراً إذا لم ينتصر على غير إنسان واحد : هو نفسه .

* * *

من جمع حياته فى روحه لم يرهبه الموت إلا كما يرهب المرء من تبديل كساء بكساء .

* * *

الأعداء والأقرباء ، والنعيم والبأساء ، وحفنة من التراب

وقبضة من الذهب سواء عند الناسك المنقطع للروح Shramana.

* * *

اجهد نفسك واحكمها .

* * *

قد يمسخ الروح كلباً ، وقد يصعد الكلب إلى عليين

* * *

وسائل ثلاث لاتسيء بها إلى أحد : كلمات ، وأفكار وأعمال .

* * *

شر من الكافر ، من يضع شريعة القتل .

* * *

لاشقاء لمن لا وهم له ، ولا وهم لمن لاشهوة له ، ولاشهوة لمن لا مطمع له ، ولا مطمع لمن ليس فى يده شيء .

* * *

كل ماحققته والفكر هادىء ، والحس مغلوب ، فذلك هو الروح المطلق .

* * *

للإجرام وسائل ثلاث : عمل الجريمة ، والإغراء بها ، والثناء عليها .

الحكمة تعترف بحق الشريعة .

* * *

أقسم على خمس : لا تقتل ، لا تكذب ، لا تسرق ، لا تستسلم للشهوة ، لا تتعلق بعروض الحياة .

* * *

فى كل ما يعرض للروح من أحوال بعد أحوال ، هى وحدها مسئولة عن كل حال .

* * *

هذه خلاصة كافية فى هذا المقام للعقيدة الجينية — عقيدة غاندى — وهى أهم شىء فى كيان غاندى وسيرته وعمله . لأن العقيدة عنده مقدمة على السياسة وعلى الوطنية ، وهى مرجعه فيما يأخذ وفيما يدع من وجوه الإصلاح ووجهته فى دعوة الحرية ومبادىء الأخلاق ، وهى باعثة الثورة فيه على القوة الغالبة ، ومعدن السلاح الذى استعد به لتلك الثورة : سلاح الحب ومقابلة العدوان بالصفح والغفران .

وقد أشرنا فى فصل آخر إلى تعليقات لغاندى على ديانته وعلى الديانات عامة ، ونشير هنا إلى العقائد التى يُستغرب من مثل غاندى — فى استنارته وجرأته على إنكار ما لا يسوغ فى ذهنه — أن يدين بها من هذه النحل البرهمية ، وفى مقدمتها

عبادة البقرة أو حمايتها كما يؤثر هو أن يسميها فى تعبيره عن هذه العقيدة . فإن شعائر دينه تنقسم عنده إلى نوعين : أحدهما يقبله عقله كتناسخ الأرواح ورجعة الانسان إلى الحياة الدنيا عدة مرات ، والآخر يفسره على وجه خاص ليقبله كما يقبل العقائد السائغة فى تفكيره . ومن ذلك عبادة البقرة التى لا يجوز عنده أن تُعبد على التأليه والتقديس ، وإنما تعبد لأن عبادتها أو حمايتها رمز للصلة بين الأحياء الناطقة والأحياء العجماء ، أو رمزٌ لشمول الحياة فى العالم لكل كائن تدب فيه حياة . وعنده أن حماية البقرة أصل جوهرى من أصول الديانة البرهمية على هذا الاعتبار ، وأنها أعجب ظاهرة فى تطور الانسان . إذ كانت البقرة على الاعتبار المتقدم رمز ما دون الحياة الانسانية من ضروب الحياة التى تناولها التطور والارتقاء ، وهى أصلح تلك الأحياء لإبراز هذا الرمز الشامل فى أطيب مظاهره . فليست هى بحيوان مفترس ، وليست هى بحيوان عدوّ ، وليست هى بالحيوان البعيد من معيشة الإنسان منذ أقدم عهوده . وقد كتب عنها يقول : « إن أمنا البقرة أبر فى كثير من الأمور من الأم التى تلدنا . فإن الأم التى تلدنا تعطينا اللبن نحو سنتين وتنتظر منا أن نخدمها طويلا متى بلغنا أشدنا ، أما أمنا البقرة فلا تنتظر منا شيئاً غير الحَب والعشب » .

وقد كان يذكر أحياناً كلمة السيد المسيح : « أحبب جارك كنفسك » ثم يضيف إليها : « وكل كائن حي للإنسان جار ».

ولا يفوتنا أن نستعيد دائماً فى هذا الصدد كلمته التى يقولها عن هوى كل إنسان لديانته وإن لم تسلم من عيب . فقد كان يقول : « إن المرء يحب ديانته كما يحب امرأته ، وهو يحب امرأته وإن لم تكن أجمل أنثى فى نظره ، لأنها هى امرأته ، لا لأنها أفضل النساء » .

وما نحسب أن غاندى كانت تفوته الفطنة لغرائب ديانته ، ولكنه كان يأخذها على العلات ، لأن الإيمان مع التجوز فى بعض رموزه خير عنده من ترك الإيمان .

صـــــلاتـه

عقيدة غاندى هى أهم شىء فى بنيان شخصيته .

وصلاة غاندى هى أهم شىء فى بنيان عقيدته .

فنحن لهذا نقترب من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته ، لأن الصلاة عنده لا تنبعث عن طلب أو استغاثة أو ابتهال ، ولكنها تنبعث إلى حس فوق الحس ، وفوق التفكير ، وفوق الطلب والابتهال .

وهى عنده : كما هى عند الجينيين عامة ، أعلى مراتب الوعى الذى يتاح للكائن الموجود .

فالروح الإلهى فى اعتقادهم سار فى جميع هذه الموجودات ، مبثوث فى جميع الأجسام والأجساد ، ولا يزال الانسان محصوراً فى أوهاق الجسد أو فى أوهاق المادة على العموم ، ما دام معتمداً على الحواس ، أو على العواطف أو على التفكير فى إدراك ما حوله . ولكنه يرتقى إلى مرتبة من الوعى أعلى من مراتب التفكير ، عندما يدرك الروح خالصاً منزهاً من هذه الأوهاق .

فهو لا يصل بالحس إلى شيء أرفع من المادة أو المحسوسات المادية .

وقد يرتقي بالتفكير إلى شيء أرفع مما يدركه الحس ، ولكنه لا يتجاوز به حدود المحسوسات .

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة «التعقل المنطقي» وهي مرتبة « التأمل » والانقطاع بالوجدان عن كل ما يحيط بالانسان .

ففي هذه المرتبة يستطيع الانسان أن يسيطر على جسده ويسيطر على الطبيعة ، ويرتقي إلى الحالة التي يقهر بها المادة ، ويصنع الخوارق ، ويخالف العادات ، وهي تسمى عندهم حالة « السديهي » Siddhis أو الصديفية إذا كان للفظ صلة باللغات السامية . ولكن هذه الحالة لا تزال دون حالة الخلاص المطلق بكثير ، وهي التي يسمونها كيفاليا Kaivalya أو التجلي الأعظم . بل ربما خيف على صانع الخوارق أن يفسد كل ما صنع إذا أعجبته قدرته على تسخير الطبيعة فاغتر بها ، واسترسل فيها ، لأنه لا يزال محصوراً في « أنانيته » الباطلة ، كلما أعجبته السيطرة وأحب المزيد منها . وإنما ينفعه صنع الخوارق لسبب واحد ، وهو تثبيت يقينه بالسير على الهدى في طريق الخلاص ، وأنه قد بلغ إلى مرتبة ينتقل منها إلى

المرتبة التى تليها ، وهى غاية الغايات التى تسمو إليها قداسة الانسان .

ومتى ترقى القديس إلى مرتبة الخلاص فهنالك يلتقى بالروح الإلهى خالصاً مجرداً من علاقات كل مادة وكل محسوس ، ويلمح الحقيقة المجردة التى تضل عنها الحواس والعقول ، وينتقل إلى سماء من السعادة المطلقة لا توصف ، ولا تقبل الوصف بالكلمات ولا بالأفكار ، لأن الكلام مقيد بالفكر ، والفكر لا ينطلق من جميع القيود . ويطيب للقديس أن يستعيد هذه اللحظات كلما استطاع ، وهو لا يستطيعها فى كل حين .

وقد كان غاندى يصلى ليستعيد هذه السعادة ، ولا ينتظر شيئاً غيرها من الصلاة ، ولم يعنه قط أن يصنع الخوارق أو يسيطر على قوانين الطبيعة . لأن الخوارق لاتقصد لذاتها ، ولا تراد إلا على سبيل البرهان ، ولا حاجة بالمتثبت إلى برهان .

وكان يود لو ينقطع للصلاة مدى حياته ، ولكنه كان يعلم إن لقاء الروح الإلهى مدى الحياة أمر يفوق الطاقة الإنسانية ، فكان يتزود منها بغاية مايطيق ، ويؤثر هذا الزاد على كل زاد فيه غذاء للجسد ، أو غذاء للعقل ، أو غذاء للروح .

قال فى محاضرة له عن الصلاة : « إن من يختبر سحر الصلاة قد يستغنى عن الطعام أياماً ، ولا يستغنى عن الصلاة لحظة واحدة . إذ لا سلام فى داخل الضمير بغير صلاة » .

وقال لسامعيه من الطلاب فى تلك المحاضرة : « إن فى صدر الإنسان لصراعاً أبدياً ثائراً بين قوى الظلام وقوى النور ، ومن لم يكن له مرفأ أمين من الصلاة يلوذ به ، فهو خليق أن يقع فريسة لقوى الظلام » .

ثم قال : « إن الصلاة هى صميم قلب الحياة الإنسانية . وهى الجوهر الحيوى فى كل ديانة ، وقد تكون توسلا أو اتصالا من باطن الروح : ولكن الغاية التى تنتهى إليها واحدة . فإنها حين تكون توسلا ينبغى أن يكون التوسل التماساً لتطهير الروح وتنظيفها من الأدران ، وانتشالها من أطباق الجهل والظلام التى تطبق عليها . فكل من تطلع إلى إيقاظ الجانب الإلهى فى نفسه فلا مناص له من اللياذ بالصلاة . إلا أن الصلاة ليست تمريناً فى الكلمات أو التراتيل ، وليست مجرد تكرار للصيغ والعبارات . فما من تكرار لتراتيل « الرمانامام » إلا وهو عقيم إن لم تصحبه يقظة فى الروح ، وخيرٌ فى الصلاة قلب بغير كلمات من كلمات بغير قلب . . . » .

وهذه هى الصلاة كما يصفها للمتعلمين ، وقد كان يخاطبهم

حين يكلمهم عنها باللغة التى يخاطبونه بها ، وهى لغة العلوم التجريبية ، فكان يقول لهم : « إن نفع الصلاة قد ثبت للمصلين بالتجربة من قديم الزمن . فلا يجوز لهم إنكارها إلا بعد تجربتها ، ولن يجربوها حتى يجدّوا فى التجربة ولا يتخذوها عبثاً أو سخرية » . وكتب له أحد الطلبة يقول : « إنه لا يصلى لأنه لا يعلم ما جدوى الصلاة ؟ » فقال له : « ألا يتعلم التلاميذ براجهم إلا بعد أن يعرفوا تلك البرامج ويعلموا جدواها ؟ » وقال فى هذا الصدد : « إن العقل شىء عظيم ، ولكنه يصبح غولا كريهاً إذا ادعى لنفسه أنه قادر على كل شىء محيط بكل شىء . وأن نسبة هذه القدرة إليه لهى نمط ردىء من الوثنية . فالعقل عند هؤلاء العقليين وثن يعبدونه كما يعبد الوثنى حجراً أو نصباً ، ويعتقد فيه أنه إله » .

وأشار إلى التجربة فى حالة الإنكار فقال : « إن الذين انقطعت الصلة بينهم وبين الله وامتنعت عليهم وسيلة الاتصال به بوحى الغريزة أو المعرفة أو التقليد ، قد شعروا ، على الأقل ، بسوء الحالة وجربوا أنها حالة محزنة موحشة فى أعماق الطوية ، ومنهم برادلو Bradlaugh الفيلسوف الملحد المشهور . . فالتجربة فى الحالتين تدل على قيمة الصلاة » .

وعاندى يذكر التجربة للذين يناقشونه فى الصلاة بأساليب

العلوم التجريبية . ولكن الصلاة فى حياته ليست تجربة ولا استطلاعاً ولا وسيلة إلى غاية . إنما هى غاية الغايات ، لأنها هى التقاؤه بالروح الإلهى فى أفق أعلى من أفق الحس والتفكير والمراجعة . وليس للإنسان غاية أسمى من هذا اللقاء .

فإذا شعر بأنه قد صلى ، وأن صلاته قد استولت عليه ، ونقلته من شواغل ذاته إلى أفق الروح الإلهية ، خرج من صلاته ماضياً فيما آمن به واتجه إليه ، ولم يبال ما يعرض له من النقائض والمجادلات عند التطبيق أو المناقشة ، لأن المناقشات والمجادلات والنقائض من أحابيل الفكر التى يصطاد بها صغائر الأمور ، ولكنه لايبلغ بها أن يحدق بعظائم الأمور .

وإيمان غاندى بالصلاة على هذا المعنى مفتاح من مفاتيح هذا العقل الذى كان يتناقض فى وصاياه وأعماله ، ولم يكن من الجهل بحيث يخفى عليه هذا التناقض فى لغة الفكر والتعبير ، ولكنه كان يحتكم بالنقائض والمناقشات إلى مرجع عنده فوق مرجع الفكر ومرجع البرهان ، وهو النفاذ إلى مصدر الفكر ومصدر البرهان من الروح الإلهى المحيط بكل هذا الوجود ، وبكل مافيه من الأجزاء والفوارق والمفارقات

لقد تقدم أن رسول « الاهمسا » قد بلغ من ثقته بسلاحه أنه وصفه لهتلر قبيل الحرب العالمية الثانية ، وقد حاول أن يقنعه بمضاء هذا السلاح فى كل مشكلة ، وأنه لأمضى من كل ما أعد من عدة ، وكل ماجند من جنود .

ولكن رسول « الاهمسا » قد عاش حتى شهد التجربة الأولى لأمضى سلاح من أسلحة الحروب عرفه المقاتلون : سلاح أمضى من كل ما أعده هتلر وأعده محاربوه فى فاتحة الحرب العالمية الثانية : وهو سلاح القذيفة الذرية .

وظنت الصحفية الأمريكية « مارجريت بورك هوايت » أنها تفحمه بسؤاله عما أعده لمقاومة القذيفة الذرية ، فلم يصف لها عدة للمقاومة غير عدته المعهودة التى تفل عنده كل سلاح : وهى اجتناب العنف والصلاة .

قال : « أقاومها بالصلاة العاملة . . أخرج إلى العراء ، وأدع ربان الطائرة يرى أننى لا أواجهه بوجه عدو . إنه لا يرى وجهى على ذلك العلو الشاهق ، ولكن الصلاة القلبية التى لاتكنّ له ضرراً ولا تنطوى على بغضاء ، تبلغه فى سمائه فتفتح عينيه . إن الذين أماتتهم القذيفة الذرية فى هيروشيما لو أنهم ماتوا وهم فى صلاة عاملة ، واستقبلوا الموت والصلاة فى قلوبهم دون أن تنفرج شفاههم بأنة ألم أو صيحة خوف ،

لما انتهت الحرب كما انتهت بتلك النهاية المحزنة ،

ونعترف بأنه جواب غير مقنع ، ولكننا نعترف أيضاً بأنه ما من جواب يجيب به ناظرٌ إلى خير الانسانية كلها ، هو أدنى من هذا الجواب إلى الاقناع .